بين مجازين
(الحاكم الأب والأب الحاكم)

بقلم : يوسف محمد المحميد

(مشهد روتيني أثناء حصص البلاغة)

-**أنا مخاطبًا طلابي**: ما فائدة الاستعارة في البيت الفلاني؟

-**أحد جهابذة الطلاب**: تقوي المعنى وتبرزه.

-**أنا من جديد**: ما فائدة التشبيه العلاني؟

-**يجيب طالب آخر ليس من الجهابذة**: يقوي المعنى ويبرزه.

-**أنا (مع كثير من اليأس)**: ما فائدة الإتيان بالكناية في التعبير الفلاني ؟

-**يجيب طالب من آخر الفصل انتبه من نومه فجأةً**: تقوي المعنى وتبرزه.

(انتهى)

هكذا يتعامل طلابنا مع اللغة وظواهرها المعقدة، فلكل ظاهرة علمية نخرج منها تفسيرًا جاهزًا لا يتصف بصفة غير التفاهة. وهكذا يعتاد الطلاب على مرور كل عبارة لغوية دون وقفة تفكيرٍ تُحاكم بناءَها وتفضح الأثر الذي تريد تركه في الواقع.

إننا نفكر في أحداث الواقع بواسطة اللغة، فطريقة تعبيرنا عن الشيء توجه تفكيرنا فيه، ويمكننا توجيه تفكير الناس من خلال إنتاج عبارات لغوية تتفاعل معها عقولهم بطريقة شبه آلية، وهذا مكمن الخطر الذي لا يعيه الكثيرون، فانظر معي إلى العبارتين التاليتين ، ولنحللهما معًا :

- **العبارة (أ) : الأب حاكم البيت.**

- **العبارة (ب) : الحاكم والد الشعب.**

وقبل التحليل سأوضح أساسًا أعتمد عليه:

الاستعارة تعبير عن الشيء بألفاظٍ تنتمي إلى مجال آخر، ففي قوله تعالى: ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ** ﴾ استعارة مكنية حيث عبر عن هدوء سَوْرَة الغضب بفعلٍ من أفعال الإنسان (السكوت)، وبهذه الاستعارة تدفعنا الآية الكريمة إلى تجسيد المفهوم المعنوي (الغضب)، وإجراء أحكام الإنسان عليه، ولا يَتَأَتَّى بناء أي استعارة من دون التشبيه، فالاستعارة السابقة مبنية على تشبيه الغضب بالإنسان ، ثم حذف المشبه به مع ذكر صفة تدل عليه (السكوت)، وعليه سأضم التشبيهات والاستعارات في حكم واحد، ولن أتناول بُعْدَها الجمالي ، بل سأتناولها كما فعل جورج لايكوف ومارك جونسن في كتابهما العظيم "**الاستعارات التي نحيا بها**" في بعديها المعرفي والسلوكي.

فالاستعارات عندهما عباراتٌ لغويةٌ تكشف الطريقة التي ينظر فيها العقل إلى العالم، وقد تَوَصَّلَا إلى أن عقولنا تفكر بطريقة استعارية فتفكر بـ(الحوار) -على سبيل المثال- من خلال صورٍ مأخوذة من مجال (الحرب)، وأن سلوكنا يستجيب لهذا النمط من التفكير، فيصدر عنا أثناء الحوار سلوك شبيه بسلوكنا في الحرب.

إذن التشبيهات والاستعارات والمجازات تكشف عن طريقة تفكيرنا في الواقع، وتصنع ردات الفعل السلوكية تجاهه، وتفصيل ذلك تجدونه في الكتاب المذكور.

ونعود مرة أخرى إلى عبارتَيْنَا اللَّتَيْنِ كنا في صدد تحليلهما ، ونبدأ من العبارة (أ):

"**الأب حاكم البيت**".

إن هذا التشبيه ناتج عن استخدام أدوات التفكير في الدولة للتفكير في الأسرة، بمعنى استخدام الأفكار والألفاظ المنتمية إلى مجال (الدولة) للتفكير في مجال آخر هو (البيت)، فنقول:

- محمدٌ أبٌ ديمقراطي.
- زيد دكتاتوري مع أبنائه.
- السلطة في بيت أحمد بيد الأم.

وهكذا نستمر في إنتاج العبارات التي تُشَبِّه البيت بالدولة، ونُجري على البيت آليات التفكير بالدولة، لتكون العلاقة بين الأب والأبناء كعلاقة الحاكم بالشعب، والعلاقة بين الزوجين كعلاقة السلطة التنفيذية بالسلطة التشريعية (بدَوْرَيْها التشريعي والرقابي).

فيمارس الأب دوره بذهنية الحاكم مستبدًّا كان أو ديمقراطيًّا، ويمارس أحد الزوجين على الآخر دور البرلماني الذي يُشَرِّع القوانين ويراقب تنفيذها.

وعلى عكس العبارة (أ) تأتي العبارة (ب):

"**الحاكم والد الشعب**"

فهي ناتجة عن التفكير بنظام الدولة وفق طريقةٍ مُشْتَقَّةٍ من نمط التفكير في تنظيم الأسرة، فالحاكم أبٌ، والشعب أبناؤه، وواجبات الحاكم وحقوقه مشتقة من واجبات الأب وحقوقه، وكذلك الحال عند الحديث عن الشعب، ولن أذكر العبارات الكثيرة بين يدي التي تُشْتَقُّ من هذا التشبيه حتى لا أكتب المقال التالي بين جدران السجن بتهمة الإساءة للدول الشقيقة والصديقة[1].

إن مشكلة العبارتين أنهما تجمعان بين نظامَيْنِ مُختلفَيْن كليًّا ، فالدولة قوامها (العدل) ، والأسرة قوامها (الحب) ، ويمكننا استخدام مصطلحات الدكتور عبد الوهاب المسيري فنقول بأن أساس

---

[1] لاحظ أن الدول تستخدم علاقات الأفراد ببعضهم للتعبير عن علاقاتها ببعضها، فهناك دول شقيقة وأخرى صديقة، وهذا التصور ناتج عن حماقة أو خبث، فالدول تربطها علاقات المصالح لا الأخوة والصداقة.

العلاقات في الدولة هو (التعاقد) ، وأساس العلاقات في الأسرة هو (التراحم).

إن مجال (العدل أو التعاقد) يُبْنَى على أساس تنظيم الحقوق والواجبات بين الأفراد، أو بينهم وبين المؤسسات بأنواعها، ودور الحب والتراحم بين أفراد (المجال التعاقدي) دور ضيق وهامشي، بل إن تشابك المصالح يُغَلِّبُ على تشابك القلوب والأرواح، لذا لا يستطيع الحب إقامة دولة، وإذا حدث وأقامها فلا يستطيع إدارتها وحل الخلافات التي تعصف بالعلاقات فيها.

أما مجال (الحب أو التراحم) فيقوم على نقيض الأساس السابق ، فالحب يتجاوز الحقوق والواجبات ، بل قد يصل إلى أن يتنازل صاحبه عن الحق ويوجب على نفسه أمورًا ليست من واجباته، وكل ذلك في سبيل المحبوب ، وهذا ما يفسر تضحيات الآباء والأمهات في سبيل أبنائهم.

وإذا أردنا أن نؤسس العلاقات بين أفراد الأسرة على أساس المجالات التعاقدية (الحقوق والواجبات)، فإننا لن نكون أمام أسرة سوية أبدًا، فالقوانين الشرعية والوضعية التي تنظم علاقات الأسرة إنما وضعت للتحاكم في حال الخلاف، أما اعتبارها أساسًا للعلاقات وبناء الحياة الأسرية عليها فيُحَوِّلُ البيت إلى دولة يسعى كل فرد فيها إلى تحصيل حقوقه وزيادة، وأداء الحد الأدنى من واجباته إذا كانت الرقابة مشددة، وبهذا ينعدم مفهوم الأسرة الذي يقوم على وجود علاقات قرابة وتراحم بين الأفراد.

إن الحب ينجح في إدارة العلاقات الخاصة والشخصية بين الأفراد، وينجح العدل في إدارة العلاقات العامة بين المواطنين، لكن تبادل الأدوار بينهما لا يُسفر إلا عن نتائج كارثية، فوضع الحب أساسًا للدولة يَهْدِمُهَا، ووضع العدل أساسًا للأسرة يُفَكِّكُها.

وعندما نفكر في حُكَّامِنا باستعارات أبوية فإننا نستحضر المفاهيم الخاصة بآبائنا لنسبغها على حكامنا، وينشأ عن تلك الأفكار سلوكنا تجاههم، فعبارة "**أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ**" التي تحكم علاقة الابن بأبيه قد تتسرب إلى علاقة المواطن بحاكمه فتكون "**أَنْتَ وَمَالُكَ لِحَاكِمِكَ**"، وحرمة عقوق الوالدين تمتد لتنشئ مفهوم عقوق الحاكم ، ووجوب بر الأب حتى لو كان فاجرًا ظالمًا يمد ظلاله إلى الحاكم الظالم الفاجر، وتنتقل حرمة قول "أف" للوالدين إلى الحكام، وعندها ستكون المعارضة عقوقًا، واختيار حاكم آخر عقوقًا ، والثورة عقوقًا.

وعلى ذلك قس حال الأب الذي "يحكم" بيته بذهنية الحاكم، فيقمع المعارضة، ويُخرس النقد، بل قد ينفي بعض الأفراد ويسجن آخرين، فهل تعتقدون أن هذا البيت (الدولة الفاشلة) سينتج غير ذلك الشعب الذي يرى حاكمه أباه، ويرى أباه حاكمه؟، ليضيع العدل والحب بين استعارتين رسختهما اللغة في عقولنا وسلوكنا.

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالعُلَا
مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
«لأبي الطيِّب المتنبي»